

الدراسات اللغوية في القرن 14 و18 عشر

د. ماس (م) قنيش فتيحة
جامعة وهران

Résumé :

La reconnaissance de la valeur des langues vernaculaires a eu par conséquence directe le souci de les enseigner et par le même, d'élaborer des grammaires. Sur ce point, le progrès viendra de la grammaire de Port-Royal, dont l'idéal étant de parvenir à des règles qui vaudraient pour toutes les langues. Ce désir d'universalité se retrouve dans la majorité des études linguistiques du 16-18- e siècle : il s'agit de trouver une origine commune à toutes les langues ; et découvrir leurs particularités diverses pour mieux les comparer. C'est la naissance du comparatisme.

1. اللسانيات في عصر النهضة:

تميزت القرون الوسطى في أوروبا بانحطاط في المجالات العلمية من بينها اللسانيات. فقد كانت اللغة اللاتينية (langue latine) اللغة الوحيدة التي يعلم بها في عصر النهضة. زد على ذلك كانت تدرس من أجل أهداف تطبيقية لأنها كانت تعتبر لغة عالمية ولغة علم وقد كانت الكتب الإغريقية للنحويين دونات وبريسيان (Donat et Prescien) من الكتب المدرسية الأساسية لتعليم اللغة اللاتينية آنذاك. وعلى حد التعبير اللساني ريفورماتسكي (Reformatski) فإن عصر النهضة طرح ثلاثة قضايا منها: أ. تأسيس وتطوير اللغات الوطنية، ب. دراسة ومقارنة اللغات المختلفة على المستوى العالمي، ج. إعادة النظر في التراث اللساني القديم للقرون الوسطى.¹

إن تلاشي العلاقات الاجتماعية ذات الطابع الإقطاعي ونمو النمط الرأسمالي قد استبعد المحافظة على اللهجات المحلية المجزئة واللغة الأدبية الميتة ألا وهي اللغة اللاتينية، وفي القرن 13-14 بدأت عملية تأسيس اللغات المحلية langues vernaculaires وبمقتضى الأسباب الاقتصادية والجغرافية كانت إيطاليا هي أول أمة تميزت

¹. Reformatski A.A. Introduction en linguistique, Moscou, 1967, p.51)

بالحكم الرأسمالي وكانت نهاية القرون الوسطى الإقطاعية بداية لفترة جديدة تتمثل في اهتمام الشاعر الإيطالي دانتي بهذه اللغات. فقد اعتبره البعض في عصر النهضة المتأخر، وقد دافع عن مسألة دراسة اللهجات الرومانسية المنطوقة في مقابل اللاتينية المكتوبة.¹ كان دانتي أليغيري (Dante Alighieri) (1265-1321) من الأوائل الذين اهتموا بقضايا مست قضية أصل اللغة حيث أوضح أنّ أفراد المجتمع لا يستطيعون فهم بعضهم بعض إلا عن طريق الإشارات وحركات الجسم فحسب بل يجب الاعتماد على علامة مناسبة لتبليغ أفكارهم. فاللغة هي التي مثلت عن طريقها هذه العلامة (signe). كان دانتي يظن أنّ اللغة ذات طبيعة ثنائية: الأولى وهي الطبيعة الإحساسية التي تظهر في صوت اللغة، الثانية وهي الطبيعة التفكيرية التي تظهر في قدرة اللغة على تسمية وتفسير الأشياء أي ما يسميها اللسانيون المعاصرون بالوظيفة التبليغية (التواصلية) (fonction communicative) للغة.. (وفي هذا المنوال كتب دانتي ملحمة "كوميديا الإلهية" باللغة الإيطالية وليس باللغة اللاتينية).²

من بين النحويين لعصر النهضة هناك راموس (P. Ramus) (1572-1715) الذي كان عدائياً للنزعة التعليمية عند أرسطو وقد دوّن كتباً في النحو للغات اليونانية واللاتينية والفرنسية. كان عصر الاكتشافات الجغرافية المشهورة قد عرف الأوروبيين على شعوب ولغات غريبة عليها كما ظهر وصف للغات جديدة. وابتداء من القرن 16 بدأ التأسيس المستقل للقضايا النحوية في روسيا، وقد بدا جلياً هذا الاهتمام في دراسات ماكسيم غريك (Maxim Grec) حوالي (1475-1556). ظهرت أول مخطوطة في 1586 تحت عنوان "النحو السلافي" (grammaire slave). وأول نحو سلافي تأثر بالدراسات النحوية للغات الأوروبية الغربية هو النحو الذي أسسه اللغوي لافريتيا زيزانيا (Laveretia Zizania). وفيه يستعمل المؤلف النماذج اليونانية حيث يقدّم عشرة أنواع في تحويل الأسماء وحالتين في تصريف الفعل.³

¹ روينز. ر. ه. موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، ترجمة د. أحمد عوض، مجلة عالم

المعرفة، الكويت، 1998، ص. 124

² Jean Perrot, La linguistique, PUF, Que sais-je, Paris, 1980, P. 63.

³ Berezine F.M. Histoire des études linguistiques, Moscou, 1987, p. 19.

لقد كانت الخاصية لكل الدراسات النحوية التي ظهرت ما بين القرن 15 و 17 هو تميزها بالطابع الوصفي (caractère descriptif) فكانت نماذج النحو اللاتيني معتمدة في تأسيس القواعد والنحو للغات المحلية. غير أن تمثيل الخصائص النحوية لهذه اللغات لم يكن في تلك النماذج مما أدى إلى ظهور صفات متميزة للغات مختلفة كما أثر أيضا في تطور النظرية النحوية (théorie grammaticale).

2. إشكالية تأسيس القرابة بين اللغات ودراساتها التاريخية:

طرح توسيع آفاق اللسانيات والتعرف على أكبر عدد من اللغات قضية شرح أسباب التشابه بين مختلف اللغات: فكان لدراسة اللغة السنسكريتية المقدسة من طرف البراهمة قيمة عظيمة في مجال مقارنة اللغات، فتعرفت أوروبا على السنسكريتية في الثمانينيات من القرن 16 عن طريق مذكرات الرحالة الإيطالي ساسيتي (Sassetti) (لقد استعمل هذا التاجر الرحالة بعض الكلمات السنسكريتية القريبة من اللغة الإيطالية في مراسلاته). وبدأت أول تجربة لتجميع اللغات الأوروبية مع العالم اللغوي جوزيف سكايليجر (Joseph Scaliger) (1609-1540) الذي ميّز في كتابه "تفكير حول لغة الأوروبيين" (essai de groupement de toutes les langues de l'Europe) (1599) إحدى عشر مجموعة لغوية منها أربعة رئيسية وسبعا فرعية. وانطلق من أن مطابقة اللغة تظهر في مطابقة الكلمات. وقسم الأربع لغات انطلاقا من تحديد اسم الإله بما يماثلها في اللغة اللاتينية (Deus) واللغة الإغريقية (Theos) ولغة من أصل جرمانى (Quott) أي اللغة التوتونية واللغة السلافية (Bog). لم يقدم سكايليجر أي مادة لسانية للتوكيد على تقسيمه هذا، بالإضافة إلى أنه افترض عدم وجود أي عنصر للقرابة بين هذه اللغات.¹

في القرن 17-18 استطاع العديد من العلماء أن يذكروا وقائع التشابه في اللغات الأوروبية. وقد بين اللغوي الليتواني ميخايل ليتوانوس (Michael Lituanus) أن حوالي 100 كلمة تتشابه في كل من اللغتين الليتوانية واللاتينية وفي نفس الوقت نفى وجود أي تشابه بين اللغة الروسية واللغة الليتوانية. أما اللساني الهولندي ل. تانكاتي (Tencaté L.) وبمئة سنة قبل ظهور اللغوي غريم (J. Grimm) كان قد قارن اللغات الجرمانية ومنها اللغة القوطية والألمانية والهولندية والأنجلو سكسونية والإيرلندية. أما في روسيا فنجد العالم اللغوي

¹. Jean Perrot, p.64.

لومونوسوف (Lomonossov) قد اهتم بتوضيح القرابة الموجودة بين اللغة الروسية واليونانية واللاتينية والألمانية وأكد هذا العالم عن هذه القرابة (parenté) عن طريق دراسات تبحث في أصل الأعداد من واحد إلى عشرة وتحليلها. كما أنه اهتم أيضا بتوضيح اللغات المتباعدة مثل اللغات الفيلندية واللغات الميكسيكية والقوطية والصينية، وأسس بدقة سبعة عائلات للغات السلافية، أما في نطاق الدراسات المقارنة فإنه اهتم في الحقيقة بكل اللغات الهند أوروبية.¹ كما نجد القديس الفرنسي كاردو (Coeurdoux) قد كتب عن اللغات الهند أوروبية موضحا التشابه الموجود بين اللغة اللاتينية والسنسكريتية وافترض أنها أتت من اللغة الأم التي لم تعد موجودة.

لقد كان للتعرف الأساسي على إحدى اللغات الهندوأوروبية القديمة ألا وهي السنسكريتية قيمة معتبرة في تأسيس القرابة بين اللغات. وفي هذا الصدد وأثناء اجتماع له وهو من مؤسسي ما يسمى بـ"الجمعية الآسيوية للبحث في اللغات وثقافات شعوب الهند"، ألقى المستشرق ورجل القانون الإنجليزي و. جونز (W. Jones) خطابا قدّم فيه خاصة الأوضاع الأساسية للنحو السنسكريتية كبنية عجيبة بحيث تدمج في صلبها القرابة الوثيقة مع اللغة اليونانية واللغة اللاتينية عن طريق جذور الفعل والأشكال الصرفية ما لا يمكننا أن نجعله من محض الصدفة. وهذه القرابة موجودة بأسلوب يثير الإعجاب حتى أنه لا يسع أي عالم في اللغة أن يتأمل هذه اللغات الثلاث إلا أن يعترف أنها تفرعت عن أصل واحد ربما ليس له وجودا الآن. وهناك أيضا تأسيس قائم يفترض أن اللغات القوطية والكلتية رغم اختلاطهما بلهجات أخرى إلا أنها من أصل واحد أيضا. وكذلك اللغات الفارسية القديمة فقد تدخل هي الأخرى في هذه الفصيلة.²

لم يقدم و. جونز أي وقائع للغة للبرهنة على الأوضاع المقدمة حول القرابة بين اللغات. ولهذا السبب لا يمكن اعتباره مؤسسا للسانيات المقارنة وإنما كانت أفكاره حول القرابة بين اللغات الآتية من أصل واحد (من السنسكريتية) من أحد الأسباب في جلب انتباه اللسانيين لذلك.

بدأ المنهج التاريخي في دراسة اللغات يظهر في تأسيس القواميس المختصة في علم الاشتقاق والمتعددة اللغات وهنا يجب

¹ Berezine F.M., p.20-21

² حاج عبد الرحمان صالح، مجلة اللسانيات، المجلد الأول رقم 1971، 2، ص 54.

التذكير بقاموس ل.ج ميناج (Ménage) بعنوان "قاموس علم الاشتقاق اللغة الفرنسية" (dictionnaire étymologique de la langue française) في 1650 وقاموس لفراري (Ferrari) بعنوان "مصادر اللغة الإيطالية" (sources de la langue italienne) في 1676. ومن بين القواميس المتعددة اللغات (أكثر من 270 لغة) نذكر قواميس الرحالة الروسي والعالم الطبيعي بالاس (P. Palass) (1789-1887). أما رجل الدين الإسباني ل. أرفاس إبانادورا (Hervas B.) فنشر ما بين 1800-1805 بمدريد مجموعة مؤلفات في ستة أجزاء بعنوان "فهرس لغات الشعوب المعروفة وإحصائها وتقسيمها وتصنيفها عن طريق الاختلاف بين الظروف واللهجات" والذي قدّم فيه معلومات لحوالي 300 لغة تقريباً. لم يحاول أرفاس وصف اللغات بقدر ما كان يريد البرهنة عن طريق اللغات عن عاملي القرابة أو الاختلاف عند الشعوب ليس إلا. لقد كان من الأوائل الذين نبهوا إلى أهمية خصائص النظام النحوي أثناء مقارنة اللغات. كما أن هناك مجموعة القواميس في أربعة أجزاء للغوي الألماني أدليغ (Adelung) بعنوان Le Mithridate أو اللسانيات العامة... (1806-1871) حيث يقدّم فيه على سبيل المثال نص صلاة لحوالي 500 لغة ولهجة.¹ وهكذا استلزم التأسيس النظري والبرهنة على القرابة اللغوية جميعاً ضخماً للمادة اللسانية وللمعلومات الفرعية عن شركة الأشكال النحوية. وقد طرحت وعولجت هذه القضايا من طرف العلماء من البلدان المختلفة في بداية القرن التاسع عشر.

3. النحو العام لبور رويال:

اشتهر هذا النحو في كتاب بعنوان "النحو العام والقياسي" (grammaire générale et raisonnée) أو نحو بوررويال (Grammaire de port Royal) وقد كتب من طرف القسسين الكاثوليكين أرنو ولانسلو (Arnaud, Lancelot) في دير بور رويال بالقرب من باريس سنة 1660. ينطلق هذا النحو من قاعدة فلسفية المنبثقة من أفكار الفيلسوف الفرنسي والمؤسس للمذهب العقلاني لديكارت الذي أدلى بأهمية العقل معتقداً أنه يعتبر مقياس للحقيقة. يتبنّى من عنوان الكتاب أنّ نحو بور رويال هدف يرمي من ورائه دراسة المبادئ المنطقية الكامنة في صلب كل اللغات والبحث في خصائصها العامة والكلية

¹ Berezine F.M., p.20.

وأيضاً في طبيعة الكلمات وبنيتها ومميزاتها المختلفة.¹ وهكذا فإنّ الهدف من وراء النحو العام والقياسي-كما بيّن ذلك ليونز- "أنّ يثبت أنّ بنية اللغة من نتاج العقل وأنّ اللغات البشرية المختلفة ما هي إلا أنماط تشعبت من منطق عام ونظام عقلائي واحد.² ينبثق نحو بور رويال من مطابقة الأصناف المنطقية واللغوية: فالأسس المنطقية عامة وليست مرتبطة بعامل الزمن ونفس الاعتقاد ينطبق على الأسس اللغوية، ويؤكد النحو القياسي بأنّ إذا كان الأمر كذلك فلا يجب أن ندهش حينما تظهر هذه القوانين في لغة معينة وفي لغات أخرى. ولهذا فإن من القضايا الرئيسية للسانيات ضرورة استكشاف الأصناف الكلية التي نلقاها في كل اللغات.

وباعتبار النحو فنّاً في التحدث فإن هذا الأخير يعني به التعبير عن الأفكار بواسطة علامات مؤسّسة من طرف أشخاص لأجل بلوغ هذا الهدف حيث تتجزأ هذه العلامات عند نحاة بور رويال إلى أقسام القسم الأول ويحتوي على الكلمات التي يعنى بها وسائل الفكر (مثل الأسماء والضمائر والصفات واسم المفعول واسم الفاعل وظرف الزمان والمكان وحروف الجر). أما القسم الآخر فيعني به سبيل وكيفية تطوير الفكر (مثل الأفعال وحروف العطف وحروف التعجب. ولهذه العلامات جانبين الجانب الخارجي وهو ما يعتبر بالطبيعة مجموع الأصوات أو الحروف والجانب الداخلي وهو الوسيلة التي عن طريقها يعبر الإنسان عن أفكاره أي المعاني. و مما يستدعي الانتباه أن هذا النحو قد تضمّن أمثلة ونماذج من اللغة الإغريقية واللاتينية والعبرية وبعض اللغات الأوروبية الأخرى وظلّ محل اهتمام النحاة الغربيين لأزيد من قرنين كاملين.³

ومما سبق يمكن القول أن كلّ هذه الأسس هي التي تكوّن النظرية التي يقوم عليها نحو بور رويال. كما يدرس الكتاب مجموعة قضايا نحوية واسعة النطاق ويولي اهتماما كبيرا للجانب التركيبي أو ترتيب الكلمات في صيغ: وفيه تدرس مجموعة نماذج متنوعة لهذه الصيغ، كما يقدّم القواعد النحوية العامة المستخدمة في جميع اللغات. حاول نحاة بوررويال تأسيس خصائص عالمية للغة من أجل اختراق ميكانيزمات عملها وذلك انطلاقاً من اعتمادهم أساساً على مادة اللغة

¹ أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، 2002، ص 49.

² John Lyons. La linguistique générale, « Langue et Langage », Paris, 1970 ; p.17.

³ أحمد مومن، ص 49.

الفرنسية وكذا مادة من اللغة اللاتينية والإغريقية والعبرية القديمة ومن مجموعة لغات أوروبية.¹

وانطلاقاً من مبادئ نحو بور رويال نلاحظ جلياً مدى هيمنته على فكر النحويين وعلماء اللسانيات إلى يومنا هذا لما أتى به مثلاً ف. هومبولت (Humboldt) حول الشكل الداخلي للغة مستعملاً المفاهيم الأرسطية حول المادة والشكل كما أقيمت محاولات دراسة مادة اللغات غير الهندوأوروبية مثل اللغة الصينية ولغات الهنود الأمريكيين وآخرون. ومن هذه الدراسات نذكر كتاب ك. قابلين (Gebelin C.) الذي صدر في 1774 بعنوان "النحو العالمي المقارن" (Grammaire comparée universelle) حاول اللغوي الروسي أ. ريجسكي (Rigiski) إبراز الحالة المنتظمة للنحو المنطقي على مادة اللغة الروسية وذلك بإصدار كتاب بعنوان "مدخل في نطاق الألفاظ" وانطلق من الاعتراف بالمبادئ العامة للقوانين المنطقية التي تعكس خصائص الفكر البشري.²

انطلاقاً من المادة اللسانية لعدة لغات مختلفة كان لتأسيس نحو عالمي بمثابة محاولة دراسة بنية اللغة علمياً ولهذا تشير هذه الدراسات إلى مرحلة هامة في تطور الفكر النحوي.

4. نظريات أصل اللغة:

تعتبر قضية أصل اللغة مركز اهتمام العديد من الفلاسفة والمفكرين للقرن 18 وخاصة منها دراسات روسو. ج. ج. (J.J. Rousseau) وديدرو (Diderot) وهردر (Herder). ارتبطت آراء روسو. ج. ج. (1712-1778) حول أصل اللغة بنظرية العقد الاجتماعي (le contrat social). وقد عرض أفكاره في مذكرتين بعنوان "مناقشة حول أصل لا مساواة بين الناس" (Discours sur l'origine de l'inégalité entre les hommes 1755) و"تجربة حول أصل اللغات" (Essai sur l'origine des langues 1761).

تدرس نظرية العقد الاجتماعي قضية أصل اللغة على النحو التالي تقريباً: في الأول عاش الناس في عزلة ونطقوا فقط بأصوات غير واضحة وقد أجبرتهم ضرورة الصراع من أجل البقاء إلى الاتحاد فيما بينهم ثم بدؤوا في تعلم النطق بالأصوات بطريقة أكثر وضوحاً

¹. Berezine, p.23

² Ibid, p.24-25.

تدرجيا واصطلحوا على علامات (signes) تعبر عن أفكارهم أو عن الأشياء المحيطة بهم. ويظنّ روسو أنّ اللغة الأولى عبارة عن صيغة طبيعية برزت غريزيا في حالات عسيرة وأنها لم تستعمل إلا قليلا في الظروف الطبيعية. ثم أصبح الناس يبحثون عن وسائل أكثر تنوعا للتعبير عن أحاسيسهم وأمانهم بتطوّر العلاقات بينهم الخ. كما تحسّنت لديهم الحنجرة والأعضاء الأخرى للكلام بارتفاع عدد الأصوات. في البداية أبرزت الأصوات إلا ما كان يؤثر في السمع فقط، أما الأشياء المدركة عن طريق حاسة النظر فكانت تنعكس عن طريق الإشارات (Gestes) ولا يجب استعمال هذه الإشارات في الظلام أو على مسافة بعيدة ولهذا عوضوها تدرجيا بنطق الصوت. يشير روسو إلى أن تعويض الإشارة بالصوت كان صعبا للغاية بالنسبة للإنسان الأوّل. ويرى أيضا أن أوّل الكلمات كانت لها معنى واسع، أي كل كلمة كانت تطابق جملة كلها كما يعترف روسو أنه لم يتمكن من الوصول إلى الأسباب التي أدّت بالإنسان البدائي إلى الإكثار من تسمية الأشياء في الأوّل واستعمال الكلمات بمعنى أكثر شمولية فيما بعد ولم يعط إجابة عن السؤال المطروح: هل كانت اللغة هي المختارة في البداية ثم ظهر المجتمع؟ أو في الأوّل ظهر المجتمع الذي أشرط ظهور اللغة¹.

لهذا اقترح روسو نظريته الانفعالية وقدمها جيّدا معاصره القس دي بروس (De Bross) الذي أشار إلى أن الشعور والأحاسيس الداخلية وليس الأشياء المرئية غير المعروفة هي التي كانت من الأسباب الأولى في إيقاظ الصوت البشري من أجل استعمال إمكانياته. ويدلّ روسو إلى فكرة الحماس هي التي استدعت الأصوات الأولى للصوت البشري. ويقول أن من الممكن أن نشبع دون كلمات وأن نتبع الصيد في صمت ولكن للتأثير على قلب فتى أو التصدّي لظالم مسيء، فإنّ الطبيعة تملّي أصواتا وصيحات وشكاوي. ولهذا كانت الأصوات الأولى للغة حسنة الإيقاع وملئية بالحماس².

واجهت نظرية روسو النقد من طرف معاصريه ديدرو (Diderot) (1713-1784) الذي عرض أفكاره حول أصل اللغة في الجزء التاسع من كتابه "الموسوعة أو قاموس قياسي حول العلوم والفنون والحرف" (Encyclopédie ou Dictionnaire raisonné des Sciences, des Arts et des Matières). افترض ديدرو أنّ اللغة تعتبر

¹.Dictionnaire des grandes philosophies, sous la direction de Lucien Jerphagon,Privat,Toulouse,1973,p.338-341.

² Berezine F.M.,p.24

جامعة للخبرات التي تتميز بها أمة معينة للتعبير عن أفكارها عن طريق الصوت. كل لغة، حسب رأيه ترجح وجود مجتمعا سابقا الذي يحتاج إلى التواصل وتؤسس اللغة من أجل أن تكون وتعطي شكلا للتعبير عن الأفكار. فهي ضرورية لتأسيس الالتزامات المطابقة لأفراد المجتمع وبالتالي تكوين المجتمع يسبق تكوين اللغة. ولكن عندما قام بهذه الاستنتاجات ذات الطابع المادي انتقل ديدرو بعد ذلك إلى مواقف مثالية يفترض فيها أن حاجيات المجتمع تمهد السبيل إلى تطور اللغة. إلا أن ظهور هذه الأخيرة كلفها الإنسان بالله. وقد ساعد هذا الإيحاء العجيب الإنسان على امتلاك القدرة على الكلام وإبداع الكلمات والتراكيب التي تطابق حاجيات المجتمع أثناء تطوره. إن ديدرو علل الأصل والوظيفة الاجتماعية للغة (fonction sociale) انطلاقا من نظرة مثالية.¹

هناك أيضا نظرية المحاكاة الصوتية أو ما يسمى بالأونوماتوبيا (onomatopée) التي ظهرت نتيجة تقليد للأصوات الطبيعية.² وقد دافع عن هذه النظرية ليبنيز (Leibniz) في كتابه "مذكرات جديدة حول الإدراك البشري" (Nouveaux Essais sur l'entendement humain, 1704). وفيه اللغات "المشتقة" الحديثة ولغات "أولى" كأساس لها ظهرت نتيجة المحاكاة الصوتية.

في 1772 وفي دراسة بعنوان "البحث عن أصل اللغة" (Recherche sur l'origine du langage) نقد العالم الألماني أ. هردر (Herder) (1744-1803) نظرية روسو حيث توصل إلى نتيجة الأصل الطبيعي للغة. اعتبر هردر اللغة نطاقا واسعا من المفاهيم التي كدستها أجيال من الناس كثرة لأفكارها خلال قرون. في أول الأمر استعملت اللغة لتوصيل الأفكار وللتعبير عن الأحاسيس، غير أن لا يجب تحويل اللغة كوسيلة تعبير عن المشاعر فقط حسب تفكير هردر، إذ طرح قضية الارتباط المتبادل بين اللغة والفكر مؤكدا أن بفضل اللغة بالضبط تعلم أفراد المجتمع التفكير وبفضل الفكر تعلموا الكلام. فأصل اللغة وتاريخها مرتبطتان لا محالة بتاريخ الفكر. وتذكر الروايات أن الأكاديمية البروسية وضعت سؤالا يتعلق بنشأة اللغة محاولة منها لإيجاد حل نهائي لهذه المسألة التي شغلت عقول المفكرين منذ أمد طويل. فوفرت جائزة قيمة لمن يستطيع الإجابة عن هذا السؤال الذي

¹ Dictionnaire Le Petit Robert, 2.ed. Larousse, Paris, 1983, p.585.

² Yakoubenski L.P. Le langage et son fonctionnement, Moscou, 1986, p.98-99.

ورد بهذه الصيغة. "كيف استطاع الإنسان أن يضع اللغة ويطورها إلى هذه الدرجة من الكمال والإتقان؟" وكان من حسن حظ "هاردر أن أحسن الإجابة عن هذا السؤال في دراسته المذكورة أعلاه.¹

وحسب هردر يوجّه الإنسان انتباهه إلى الأشياء الموجودة في الواقع الموضوعي مشيراً إلى خصائصه المميزة التي بفضلها يميز الأشياء، وأول خاصية حفظت في الذاكرة لقيت تعبيرها عن طريق الكلمة مما يعلّل ميلاد اللغة. وفي رأيه لا تعتبر اللغة من تأسيس إلهي كما لم تظهر من محض الصدفة بل هي عبارة عن ظاهرة طبيعية برزت أثناء تطوّر الإحساس والعقل لدى الإنسان حيث تظهر أولاً الكلمات التي تشير إلى الأشياء الملموسة أو خصائصها، ثم بعد ذلك الكلمات التي تعني المفاهيم العامة. وهكذا نجد أن العالم الحقيقي هو الذي يكون بمثابة القاعدة الأساسية لتكوين المفاهيم العامة. وتتطوّر اللغة باستمرار مع تطوّر الإنسان الذي يكون حاملاً لهذه اللغة.

يعتبر هردر من أول مؤسسي نظرية تاريخ اللغة وبحديثه عن المرحلتين الاثنتين لتطور اللغة يكون هذا العالم قد طرح قضية النزعة التاريخية في التطور اللغوي. كانت لأفكاره حول الارتباط المتبادل للغة والفكر أثراً كبيراً عند لغويو الأجيال المتتالية ومنهم خاصة هومبالت ف. وآخرون.²

5. بعض من قضايا دراسة اللغة عند بيقون وديكارت ولوك ولينبتر ولوموسوف

ساعد التطوّر العلمي السريع للقرن 17 و18 تزايد المتطلبات العلمية المقدمة للغة على ظهور فلسفة اللغة (philosophie du langage) التي طرحت قضية دراسة خصائصها المعرفية الأساسية لها.

في إنجلترا أعطى بيقون (Bacon F.) (1561-1626) اهتماماً كبيراً للقضايا الفلسفية للغة. ومن خلال تأسيسه للنظرية الفلسفية حول اللغة وضع بيقون منهجاً تجريبياً (méthode empirique) المؤسس من طرفه والذي بموجبه تعتبر التجربة انطلاقة من الأشياء الموجودة في الطبيعة المادية. أفكار بيقون ملخصة في دراسات بعنوان "المنهج الجديد للعلوم" (Novum Organum) 1620 ودراسة أخرى بعنوان "حول فضل وتحسين العلوم" (De dignitate et augmentis scientiarum)

¹. أحمد مومن، ص. 59.

². Berezine F.M., p.25.

1623، يفترض بيقون أن اللغة وسيلة للاتصال والتعبير والإبلاغ بين الناس ويجب دراستها بطريقة تجريبية أي البحث في كل جوانبها بالتجربة. يقسم بيقون قواعد اللغة التي تدرس اللغة إلى قواعد حرفية وقواعد فلسفية. تستعمل الأولى خاصة لأهداف عملية منها: دراسة اللغة حسب افتراض بيقون وإعطاء الإمكانية لمعرفة أحسن على خصائص التكوين الروحي للأمم المختلفة وقيمهم وعاداتهم. أما الثانية فتدرس العلاقات بين الكلمات والأشياء وبين الكلمات والأفكار. ويفترض بيقون أن الكلمات عبارة عن علامات تعسفية للأشياء التي لها على الأقل علاقة بالأفكار والمفاهيم. ومن خلال نقده للمفاهيم والأفكار الخاطئة التي تعيق التطور العلمي للمعرفة، يربط بيقون هذه المفاهيم بمجموعة أوهام تحاصر الإنسان وتمنعه من معرفة الطبيعة معرفة موضوعية. والكلمات تعتبر إحدى هذه الأوهام. يفترض بيقون أخذا بعين الاعتبار القصور الظاهر في الكلمات في الاتصال اليومي لتأسيس لغة اصطناعية فلسفية تكون فيها العلامات مؤسسة إراديا وتشير إلى مفاهيم واضحة ودقيقة. ومن خلال الأفكار التي تخصّ بيقون أيضا فكرة تأسيس النحو المقارن (grammaire comparée) لكل اللغات بهدف وضع شكل واحد عام وموحد لجميع اللغات والذي يمكن أن يصبح أحسن وسيلة اتصال. لم يؤسس بيقون نظرية لغة منتظمة ولكن كان من الأوائل الذين رسموا خطة لدراسة اللغة عن طريق التجربة والذي أدى إلى تشكيل اللسانيات التاريخية للقرن 19 (linguistique historique).¹

قدّم العالم الفرنسي المشهور ديكارت (Descartes) (1596-1650) فكرة تأسيس لغة اصطناعية: «... يجب إقامة ترتيب منهجي لكل الأفكار مثل الترتيب المركّب منهجيا لمجموعة الأعداد الطبيعية مثلاً كان ممكن تعلّم في يوم واحد وبأي لغة غير معروفة تسمية وكتابة كل الأعداد إلى ما لا نهاية. تعتبر هذه الأعداد على كل حال مجموعة لا متناهية من التراكيب ويجب أن توجد عليها بنفس الطريقة إمكانية بناء كل الكلمات الضرورية للتعبير عن كل ما يأتي أو ممكن أن يخطر في ذهن الإنسان. ويعتمد ابتكار مثل هذه اللغة على فلسفة حقيقية، هذه الأخيرة هي فقط التي تستطيع أن تحصي كل أفكار البشر وأن ترتبها في نسق منظم مظهرة إياها في صورة واضحة وبسيطة في نفس الوقت. والكل يتوقف على إيجاد هذه الأفكار البسيطة التي تخصّ

¹. Ibid, p.26.

تصوّر كل إنسان والتي منها يتكون كل ما يفكر فيه البشر»، «ولو كان لهذه اللغة شكل واحد فقط من التصريف والاشتقاق وتكوين الكلمات، لما كانت الأشكال غير الكاملة وغير الصحيحة تظهر بسبب التعود على الخطأ. لو كان تصريف الأفعال واشتقاقها يتكونان بفضل السوابق التي تضاف إلى جذر الكلمات وآخرها وكانت السوابق موجودة في قاموس عام لأتقنت العقول الفظة مستعملة هذا القاموس خلال ستة أشهر للتحدث بطلاقة بهذه اللغة».¹ تطوّرت أفكار ديكارت حول اللغة الرمزية (langue symbolique) بعد ذلك مع ليبنتز الذي عرض استعمال الرمز الرياضي في تركيب اللغة الاصطناعية.

طرح الفيلسوف الإنجليزي المادي ج. لوك (J. Locke) (1632-1704) القضايا الفلسفية النظرية في دراسة اللغة في مؤلفه الفلسفي الأساسي بعنوان "مذكرة حول بصيرة الإنسان" 1690 وفيه يربط إشكالية معاني الألفاظ بدراسة طبيعة اللغة. عرف لوك اللغة باعتبارها وسيلة عظمى ورابطاً عاماً للتعايش. وباعتباره مؤيداً للمذهب الحسي (Sensualisme) يظنّ لوك أنّ الإنسان يفهم أشياء العالم الموضوعي من خلال الإحساس. فالكلمة بالنسبة له لها طبيعتها الفيزيائية وتتألف من أصوات منقطعة التي تدرك بأعضاء السمع. من وظائف الكلمة إيصال الفكرة، ولكن من غير الممكن فهمها مباشرة عبر الشعور. وعليه فإيصال الفكرة يجب تجسيمها بعلامات مدركة بأعضاء الحس. هذه العلامات هي كلمات وفي رأي لوك الكلمة عبارة عن علامة التفكير تدرك بالإحساس، أمّا معناها فهو قدرتها على مزج المفاهيم والتصورات أي التفكير. والكلمة باعتبارها نائبة عن الأفكار تعتبر إرادية من خلال علاقتها بالمشار إليه وبالمتكلم على حد سواء. والجانب الجوهرى للكلمة يعترف بجانبها التجريدي يعترف العالم الفيلسوف الألماني ليبنتز في مؤلفاته "مذكرات جديدة حول إدراك الإنسان" (1700-1704) ونشرت في 1765 بادعاء لوك المتنازع عليه حول فكرة أنّ معنى الكلمة يوضع من طرف الأفكار الفردية للمتكلم. ويحاول ليبنتز معالجة قضيتين هما: كيف تحدث إذن عملية الاتصال ولماذا يعطي مختلف الناس نفس المحتوى للكلمة الواحدة عند نطقها؟ يفسّر العالم ليبنتز هذا بسببين اثنين: أولاً إنّ أكثر الأفكار والمفاهيم العامة هي التي تضع معنى الكلمة. وأمّا التصورات الفردية المعبرة بالكلمات المدركة بطريقة فيزيائية فهي

¹. Dictionnaire des grandes philosophies, p.77-84.

تعتبر مظاهر فرعية للمفاهيم العامة. ثانياً ارتباط الكلمات في الكلام يضبط عن طريق القواعد المتشابهة والضرورية العامة.

يضع لينتز منهاجاً مركباً لتأسيس لغة اصطناعية "سلاح العقل" ويعتمد المنهج على الاعتراف بفكرة أن كل المفاهيم المعقدة عبارة عن تركيب من الأفكار البسيطة بمعنى أن هذه الأفكار البسيطة التي هي "ذرات" المعنى تكون المفاهيم المعقدة. وللتعبير عن معرفة موجودة عن طريق العلامة أسس لينتز مشروع لغة مصاغة تتلاءم مع الاتصال الكتابي والشفوي. يوجد في هذه اللغة تسع أعداداً ذات مغزى ومتتابعة عن طريق تسع حروف من الأبجدية اللاتينية. أما فروع العشرات فتتناسب مع خمسة صوائت:

1=b, 2=c, 3=d, 4=f, 5=q, 6=h, 7=l, 8=m, 9=n, 10=a, 100=e, 1000=i, 10.000=0, 1000.00=u
العالي باقتران صائتين نحو: (1000.000=au). إن نظام اللغة الاصطناعية المؤسسة من طرف لينتز كان من الضروري استخدامه للبحث في "أبجدية الفكر البشري" عن طريق لغة فلسفية عالمية للعلوم.¹

في روسيا اهتم بشدة كل من لومونوسوف (Lomonossov) ورديشف (Radichev) بالقضايا الفلسفية للسانيات. من الممكن أن نصف تصوّر لومونوسوف بالتصوّر المادي الطبيعي العلمي. ومن أهمّ دراساته اللغوية الفيلولوجية المعتبرة "النحو الروسي" (grammaire russe) 1755 حيث نشر في الفقرة الأولى القضية الأساسية للسانيات الفلسفية وهي ارتباط اللغة بالفكر «يجب أن يكون بين أقسام الكلمة تناسب بحيث نستطيع التعبير عن أفكارنا». ويدرس لومونوسوف الفكر أيضاً من النظرة المادية، إذ يرى أن منبع الفكر يكمن في الأحاسيس التي هي عبارة عن شعور يعكسه العالم الخارجي والواقع. إن أهمّ وظيفة للغة هي الوظيفة التبليغية إذ تستخدم اللغة "لإيصال أفكارنا للآخرين"، وبفضلها يبلغ الإنسان المفاهيم لغيره، «هذه المفاهيم ذاتها نتصوّرها عن طرق الإحساس». اللغة ضرورية للبشر «من أجل انسجام في سير الأمور العامة»، أي من أجل النشاط العملي المتبادل.² مع نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع عشر تحول الوضع اللغوي تماماً بسبب حدث من أهم الأحداث في تاريخ اللسانيات، ألا

¹ Dictionnaire Le Petit Robert, 2, P.1045

وهو الاكتشاف الكامل للغة السنسكريتية القديمة ومقارنتها باللغات الأوروبية المختلفة.

قائمة المراجع

1. روبنز ر.ه. موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، ترجمة د. أحمد عوض، مجلة عالم المعرفة، الكويت، 1998..
2. حاج عبد الرحمان صالح، مجلة اللسانيات، المجلد الأول رقم 1971، 2.
3. أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، 2002.
4. Reformatzski A.A. Introduction en linguistique, Moscou., 1967.
5. Jean Perrot, La linguistique, PUF, Que sais-je, Paris, 1980.
6. Berezine F.M. Histoire des études linguistiques, M., 1987.
7. John Lyons. La linguistique générale, « Langue et Langage », Paris, 1970.
8. Dictionnaire des grandes philosophies, sous la direction de Lucien Jerphagon, Privat, Toulouse, 1973.
9. Dictionnaire Le Petit Robert, 2, ed. Larousse, Paris, 1983.
10. Yakoubenski L.P. Le langage et son fonctionnement, M., 1986.